قرينة التضام فى التركيب القرآنى

لا جديد تحت الشمس. هكذا قالوا وهكذا يصدّق النحاة العرب هذا القول. لقد ظهرت مناهج حديثة لدراسة اللغة يفخر بها أصحابها ويرى كل صاحب مذهب أنه جاء بما لم يأت به الأوائل جاء البنيويون بمذهبهم فما لبثوا أن أعلنوه حلا غير مسبوق لتفسير كل أنظمة اللغة، ثم جاء التوليديون فشهّروا باغراق البنيويين الأمريكيين فى تجاهل المعنى وتوجيه العناية كلها إلى المبنى وأنشأوا لأنفسهم مذهبا يفرقون به بين بنية عميقة لا تصلح أن توضع فى كلمات لأنها فكرية منطقية خالصة وبنية أخرى سطحية هى واحدة من إمكانيات التعبير عن البنية العميقة بعناصر لغوية. وفى النحو العربى كثير من هذا وكثير من ذلك وما بقى بعد هذين الكثيرين فهو من مميزات النحو العربى التى يعتز بها ويفخر، ولإيضاح هذا الكلام نسوق فكر البنيويين فيما يختص بالمحورين الشهيرين: المحور الرأسى Diachronic أو محور التقليب والمحور الأفقى Synchronic أو محور التركيب ونرسمهما متقاطعين هكذا.

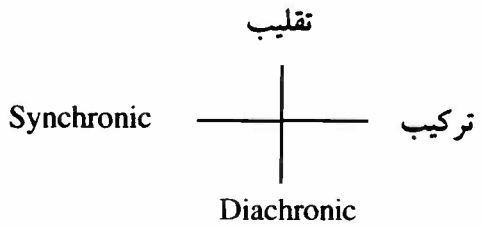

والمقصود بهذين المحورين أن العلاقات فى داخل نظام اللغة لها أهميتها الخاصة وأننا لو طبقنا فكرة نوعى العلاقة وهى العلاقة التقليبية والعلاقة التركيبية على عناصراللغة لوجدنا أن العلاقة التركيبية مثلا تحُكم الترابط بين مفردات الجملة

وعناصر النص وأن العلاقة التقليبية مثلا أيضا تكشف عن التنوع فى داخل المصفوفة أو الجدول، ولكن طبيعة العلاقتين أعقد بكثير من هذا التبسيط الذى يكاد يكون مخلا، وأشهر ما طبق البنيويون عليه لايضاح هاتين العلاقتين هو أصول الأصوات (الفونيمات Phonemes وفروعها) (الألوفونات allaphanes) والمعروف أن أصول الأصوات وحدات صوتية معقولة وأن فروعها عمليات حركية منطوقة ففى اللغة العربية للنون أصل واحد نعتد به ونكتبه بصورة واحدة كما لو كنا ننطقه بطريقة واحدة ولكنك إذا راقبت نفسك وأنت تنطق كلمات مثل ينفع ـ ينظر ـ من رأى ـ من لام ـ ينشأ ـ ينصح ـ ينجح ـ ينكر ـ ينقل ـ فسوف ترى نطق النون فى كل كلمة من هذه يختلف عن نطقها فى كل كلمة أخرى ويتضح ذلك فى اختلاف مخرج النون فى كل كلمة عنه فى غيرها وهذه النونات جميعا تعد فروعا للوحدة الصوتية المعقولة التى نسميها النون ونعدها واحدة من ثمانية وعشرين حرفا.

والمعروف أننا إذا استبدلنا شيئا بشىء على سبيل المعاقبة فالعلاقة بين الشيئين علاقة تقليبية لا تركيبية. لقد جعل البنيويون الفرق بين الأصل والفرع أى بين الحكم على صوت ما بأنه أصل أو فرع مرتبطا بصلاحه للاستبدال أو عدم صلاحيته. فقالوا: إذا حل صوت محل صوت آخر فى بيئة صوتية معينة ثم تغير المعنى بحلوله فالصوتان من أصلين مختلفين. فإذا تصورنا بيئة صوتية مكونة من: صوت فى صدارة الكلمة + ألف المد + ل

ثم جئنا بكلمات على غرارها مثل قال ـ نال ـ صال ـ عال ـ غال ـ كال ـ مال وكلها أفعال ثلاثية ماضية جوفاء حكمنا من خلال اختلاف معنى كل كلمة عن اختها بأن كل صوت فى صدر كلمة ما يختلف فى أصله عن كل صوت آخر مما يقع فى الصدر من إحدى هذه الكلمات والقاعدة الأخرى أو الوجه الآخر للقاعدة السابقة أن الصوت إذا لم يصلح للحلول محل صوت آخر فهما من أصل صوتى واحد، فالنون فى ينفع مثلا تنطق باتصال الشفه السفلى بالأسنان العليا فهى شفوية أسنانية وهذا النطق الشفوى الأسنانى لايصلح فى كلمة مثل ينقل لأن «ينقل» تنطق نونها فى مخرج القاف وهو اللهاة وما أبعد الشقة بين المخرجين ولو أنك تكلفت نطق «ينقل» بنون «ينفع» لرّد ذلك عليك مرفوضا لأنه نطق غير عربى أى لا تعترف به القواعد

الصوتية للغة العربية فالخلاصة أن تغير المعنى عند المعاقبة يدل على اختلاف الأصلين وامتناع المعاقبة يدل على وحدة الأصل.

وربما كان من المجدى أن نسوق مثالا آخر للعلاقة التقليبية Diachronic ما يكون بين مفردات الجدول الإسنادى الواحد من علاقة رأسية بسبب تقليب الأصل على مختلف الصور وذلك على النحو التالى:

أنا	ضربتُ	أضرب	
نحن	ضربنا	نضرب	

أنتَ	ضربْتَ	تضربُ	اضربْ
أنت	ضربْتِ	تضربين	اضربى
أنتمَا	ضربتما	تضربان	اضربا
أنتما	ضربتما	تضربان	اضربا
أنتم	ضربتم	تضربون	اضربوا
أنتن	ضربتن	تضربن	اضربْن

هو	ضربَ	يضربُ	
هى	ضربَتْ	تضربُ	
هما	ضربا	يضربان	
هما	ضربتا	تضربان	
هم	ضربوا	يضربون	
هن	ضربْنَ	يضربْنَ	

فالعلاقة بين كل ماض وماض أو بين كل مضارع ومضارع أو بين كل أمر وأمر هى علاقة رأسية قوامها تقليب الفعل على حالات الإسناد إلى الضمائر وهذه العلاقة التقليبية لا تسمح لأى اثنتين من هذه الصيغ أن تتواليا على السطر لينشأ عنهما تركيب أو جملة ويقال مثل ذلك فى مشتقات المادة الواحدة وفى مفردات كل جدول على الإطلاق.

أما العلاقة الأخرى التركيبية Synchronic فهى علاقة أفقية بين مفردات الجملة كعلاقة الإسناد أو التعدية أو الغائية أو المعية إلخ وحين حاولت الكشف عن هاتين العلاقتين فى النحو العربى وجدت نظام النحو ينمى فى داخله العلاقة التقليبية ويثريها حتى يصبح الشكل الإيضاحى السابق بحاجة إلى التعديل على النحو التالى:

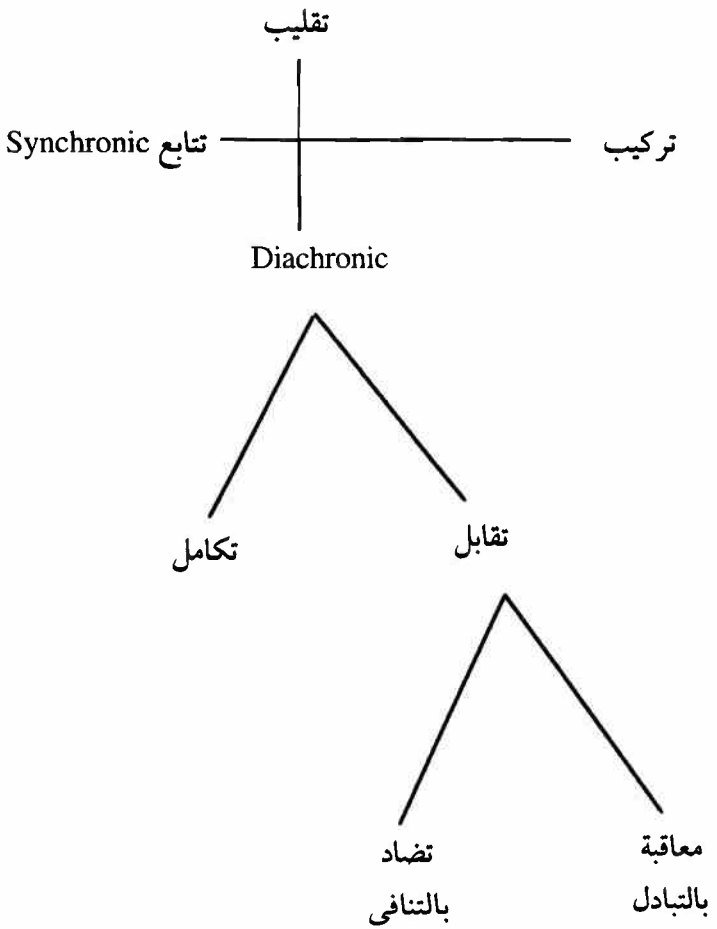

وكل واحدة من المعاقبة والتضاد والتكامل فروع على العلاقة التقليبية وجميع ذلك يقف بإزاء التتابع الذى هو مظهر العلاقة التركيبية والمقصود بالمعاقبة التبادل وهو صلاحية العنصرين اللغويين أن يحل أحدهما محل الآخر. والمقصود بالتضاد التنافى وهو علاقة عنادية بين مفهومين إذا تحقق أحدهما امتنع الآخر. والمقصود بالتكامل أن

يتكون من مجموع الوحدات المتكاملة مجموعة يتمثل بها نظام فرعى من أنظمة اللغة كما رأينا فى الجدول الإسنادى السابق الذى تمكنا بواسطته من التعبير عن تقليب الصيغ المسندة إلى الضمائر بحيث اتضح من تجاورها فى الجدول أنها تقع فى منظومة فرعية متكاملة لكل من عناصرها موقعه فى الجدول وهذا الجدول أحد الأنظمة الفرعية فى اللغة.

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة التى حاولنا بالوصول إليها أن نقدم بيانا نظريا للتقليب والتركيب فإننا ننطلق الآن إلى الكشف عن مجالات المعاقبة والتضاد والتكامل والتتابع فى النحو العربى على النحو التالى:

أ ـ المعاقبة: عندما نسمع أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض يكون معنى ذلك أن بعضها يعاقب بعضا أى يقع موقعه ويؤدى وظيفته، هذا هو معنى المعاقبة وهو ما نلمحه فى مفهومات مثل الإغناء ومعاقبة الوصف للفعل ومعاقبة الجملة ذات المحل للمفرد والمصدر المؤول للمصدر الصريح ومعاقبة المفعول معه للفعل المضارع المنصوب بعد وأو المعية ومعاقبة المفعول لأجله للمضارع المنصوب بعد اللام ومعاقبة أنّ وما دخلت عليه لمفعولى ظن ومعاقبة ذكر الخافض لنزع الخافض ومعاقبة الإظهار للإضمار والذكر للحذف والحقيقة للمجاز وهلم جرا وواضح أن المعاقبة تقليب لا تركيب.

ب ـ التضاد ـ ويتضح التضاد فى التقسيمات الثنائية كالخبر والإنشاء + وكالجملة الأسمية والجملة الفعلية والعلاقة الإعرابية والمحل الإعرابى وكالإعمال والإهمال وكالعمدة والفضلة وكالجمود والاشتقاق وكالتمام والنقص والخفة والثقل والراجح والمرجوح وكالأولى وغير الأولى وكالإفادة والإحالة وكاللبس وأمنه الخ، وكل عنصر فى هذه الأزواج إذا تحقق ارتفع قرينه والعلاقة بينهما من قبيل التقليب لا التركيب.

جـ ـ التكامل: التكامل يكون بين أفراد كل مجموعة من المبانى كمشتقات المادة ومفردات جدول الإسناد ومفردات جدول التصريف (التى تبين من خلالها صلاحية اللفظ لمختلف أنواع الزوائد الدالة على المعانى كالتثنية والجمع والتعريف والتنكير الخ) والضمائر ومبنيات الظروف ومجموعات الحروف (كحروف الجر وحروف

العطف الخ) والقرائن اللفظية والنظم الفرعية التى يتكون منها النظام الأكبر للغة وكل أنواع التقسيمات ومحاور المطابقات وحقول المعجم الخ وكل ذلك تتكامل مفرداته ولا تتابع فالعلاقة من قبيل التقليب لا التركيب.

د ـ التتابع: ويفهم هذا فى العلاقات التى تقوم على السطر بين عناصر أنماط الجمل والمركبات وبين التابع والمتبوع والمفسر والمفسر والتميز والمميز والضمير ومرجعه وتحمل الضمير وعدمه والمطابقة بين العنصرين والرتبة بينهما والفصل والوصل والافتقار والاختصاص والاقتران والعامل والمعمول وتقدير الجملة والتركيب الخ. فالعلاقة فى كل موقع من هذه المواقع إنما تقوم بين عنصرين من عناصر النص أفقيا على السطر لا رأسيا فى الجدول.

هذا عن العناصر البنيوية فى النحو العربى أما العناصر التوليدية التحويلية فحسبنا أن نرى دعوى النحاة أن اللغة سليقة وأن بعض حالات الحذف لا يقدر المحذوف فيها إلا فى ضوء فهم معين أقرب ما يكون إلى البنية العميقة وأن بعض البنى السطحية نحو ﴿ **وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران ١٠٢) ليس معناها فى الحقيقة نهيا عن الموت وإنما هو أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت وكون البنية السطحية نهيا لا يطعن فى أن معناها الأمر وانظر أيضا إلى قولهم إن مفعولى ظن والثانى والثالث من مفاعيل أعلم وأرى أصلها المبتدأ والخبر وأن مفعولى أعطى ليس أصلهما المبتدأ والخبر وأول هذين المفعولين هو الآخذ ولو كانت رتبته التأخير وثانيهما هو المأخوذ ولو تقدم نحو ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ** ﴾ (البقرة ٢٦٩)

وقولهم إن التمييز قد يحوّل عن الفاعل أو عن المفعول الخ مما يقترب كثيرا من أفكار التوليديين.

والعلاقتان التقليبية والتركيبية كلتاهما ذواتا صلة وثيقة بقرينة التضام التى نعرف من خلالها إمكان التوارد والمعاقبة والتنافى أو التضاد والتكامل الذى يظهر بوضوح أن العنصرين المتكاملين لا يتعاقبان، أما التتابع فهو المسرح الأصيل لقرينة التضام فى السياق.

فلا يكاد باب من أبواب النحو العربى يخلو من ظاهرة التضام إما فى صورتها الإيجابية كالافتقار والاختصاص والتوارد، وإما فى صورتها السلبية كالتنافى أو التنافر. والمعروف أن الافتقار والاختصاص والتنافى من ظواهر استعمال العناصر التركيبية وأن التوارد والتنافر من ظواهر استعمال الكلمات المعجمية، فأما الافتقار فإما أن يكون للفظ بحسب أصل الوضع وعندئذ يسمى متأصلا وإما أن يكون للباب بحسب التركيب فيسمى غير متأصل. فالافتقار المتأصل هو افتقار العناصر التى لا يصح إفرادها فى الاستعمال وإن صح ذلك عند إرادة الدراسة والتحليل مثال ذلك افتقار حرف الجر إلى المجرور وحرف العطف إلى المعطوف وحرف الاستثناء إلى مستثنى إن حذف وجب تقديره كما فى «ليس إلا» وواو الحال إلى جملة الحال والضمير إلى مرجعه والموصول إلى صلته وبعض الظروف إلى مضاف إليه إما مفرد وإما جملة وغير المتأصل كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والحال إلى حدث تلابسه وفعل التعجب إلى تمييز والمبتدأ إلى خبر وإنما سمى غير متأصل لأن الافتقار هنا غير منسوب إلى الكلمة فحين تقع الكلمة موقعها للتعبير عن الباب لا يكون الافتقار للكلمة لأنها غير مفتقرة بحسب الأصل وإنما يكون الافتقار للباب فكل كلمة تقع هذا الموقع يفرض عليها الباب هذا النوع من الافتقار.

وأما الاختصاص فهو من صفات الحروف والأدوات لأن الأداة إما أن تدخل على نوع معين من الكلمات لا تتعداه إلى غيره فتسمى مختصة كاختصاص إن وأخواتها بالدخول على الأسماء واختصاص حروف الجر بذلك أيضا واختصاص الجوازم بالدخول على المضارع، وإما أن تصلح الأداة للدخول على مختلف أنواع الكلمات مثل «ما» النافية وأدوات الاستفهام وحروف العطف فتكون غير مختصة وقد انتفع النحاة بهذه الظاهرة فى تنظيرهم للإعراب فكان من أصولهم: «لا يعمل الحرف إلا إذا كان مختصا».

والتنافى أيضا من ظواهر العناصر التركيبية ولو أن العنصر المنفى قد يكون بابا من الأبواب وقواعد ذلك عند النحاة قواعد سلبية لا تخلو من «لا» النافية كقولهم:

«لا يدخل الحرف على الحرف»

«الضمير لا يوصف ولا يضاف»

«لا تدخل حروف الجر على الأفعال»

«لا تدخل الجوازم على الأسماء»

«لا تجر حتى إلا ما كان آخر أو متصلا بالآخر»

فإذا وضعنا هذه القواعد السلبية جنبا إلى جنب مع القواعد الإيجابية للافتقار والاختصاص عرفنا موقف النحو من طوائف الكلمات التركيبية وهى أهم وسائل تركيب الكلام وأكثر الكلمات دورانا فى الجمل.

أما التوارد والتنافر فمن ظواهر المفردات المعجمية «وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين الكلمات التركيبية والكلمات المعجمية».

ويرجع ذلك إلى أن مفردات المعجم تنتظم فى طوائف يتوارد بعضها مع بعض ويتنافر مع بعض آخر. فالأفعال طوائف تتوارد كل طائفة منها مع طائفة من الأسماء وتتنافر مع الأسماء الأخرى «وهذا هو معنى قول البلاغيين»: «إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له» والمبتدآت والموصوفات وأصحاب الأحوال طوائف يتوارد كل منها مع كلمات دون أخرى لتكون خبرا عنها ونعتا لها وحالا منها. فمن غير المقبول أن يقال: «فهم الحجر المسألَة» لأن الفعل «فهم» يتطلب فاعلا عاقلا ولا أن يقال «انكسر الخيط» لأن فى الخيط من المرونة ما يحول بينه وبين الوصف بالكسر، ولا أن يقال: «دهنت الهواء بزيد» لأن الهواء لا يدهن وليس زيد دهانا.. فهذه التراكيب تشتمل على كلمات متنافرة ومن ثم تفتقد عنصر الإفادة وإن تحققت لها صحة التركيب النحوى بحيث يمكن إعرابها. ومعنى هذا أن الجمل المذكورة تتسم بالإحالة:

وللنحو شروط تضبط توارد طائفة مع أخرى لا يكاد يخلو منها باب من أبواب النحو وإليك بعض هذه الشروط المعجمية.

١ ـ يشترط للمفعول المطلق أن يشارك فعله فى مادة اشتقاقه.

٢ ـ لا يكون التوكيد لفظيا إلا مع تكرار اللفظ.

٣ ـ إذا أفاد الفعل مشاركة أو تسوية أو مخالفة أو نحوها وجب أن يكون فاعله مثنى أوجمعا أو معطوفا عليه.

٤ ـ لا يضاف اللفظ إلى ما فى معناه.

٥ ـ لا تكون الحال من مادة الفعل الذى نصبت به إلا مع تخصيص الحال نحو سعى ساعيا إلى حتفه.

٦ ـ لا تأتى الحال من المضاف إليه إلا بشرطين أحدهما معجمى والآخر نحوى يقول ابن مالك: «ولا تجز حالا من المضاف له... إلخ».

٧ ـ لا حذف إلا بدليل يدل على المحذوف.

٨ ـ لا تبنى النكرة على الضم فى النداء إلا مع القصد.

٩ ـ يلزم الربط بإعادة اللفظ إذا خيف اللبس.

١٠ ـ لا تدخل «أنْ» المصدرية على فعل لا مصدر له كعسى وليس ونعم وبئس الخ.

١١ ـ لا يأتى المطاوع إلا من فعل يمكن لمفعوله أن يتأبى على قبول الحدث فلا يجوز «انقتل» أو «انضرب».

١٢ ـ تعتمد المطابقة أحيانا على اختلاف الاعتبار كما نقول: العرب أمة. فيؤنث فعلها وهى شعب فيذكر الفعل فيقال: قال العرب وقالت العرب.

١٣ ـ المناسبة المعجمية ضرورية بين اللفظين فلا يجوز أن يقال «صعد إلى أسفل الجبل» أبدا ولا اشتريت الطمأنينة بالحيطة إلا على سبيل المجاز.

١٤ ـ على الرغم من وصف الفعل فقط بالتعدى واللزوم حتى ليوحى ذلك بأن التعدى واللزوم نحويان فقط تمتد الظاهرة إلى مشتقات المادة من الأوصاف كوصف الفاعل والمفعول والمبالغة وإلى المصدر أيضا فالظاهرة معجمية فى أساسها.

ومما يقع فى حيز القول فى ظاهرة التضام الحذف والزيادة والفصل والاعتراض وإدخال اللفظ على غير مدخوله ومنه التضمين وإغناء أحد العنصرين عن الأخر والشروط التركيبية الضرورية لتأليف ألفاظ السياق.

فالحذف لا يكون إلا بدليل من بنية معهودة أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى فى السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف. فمن حذف جزء من البنية

المعهودة، ما نراه بكثرة فى الأسلوب القرآنى من حذف ياء المنقوص لغير التقاء السكانين كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦).

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد ٩)

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ (الحج ٢٥)

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج ٥٤)

﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (سبأ ١٢)

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (غافر ١٥)

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (غافر ٣٢)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ ﴾ (الشورى ٣٢)

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (ق ٤١)

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ (القمر ٦)

وهذا النوع من الحذف لا يعد من قبيل ظاهرة التضام لأنه مقصور على الكلمة المفردة.

أما حذف الأداة فقد يكون للأداة الداخلة على الجملة أو الداخلة على المفرد أو لأحد عنصرى الجملة أو للعنصرين مع ذكر الأداة الداخلة عليهما نحو «ولو..» و«ماذا» و«لِمَ». فمن حذف الأداة الداخلة على الجملة حذف همزة الاستفهام فى قوله تعالى:

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة ١٢٤)

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء ٢٢)

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (محمد١٥)
أى أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار.

ومن حذف الأدوات الداخلة على المفردات ما يسمى بنزع الخافض نحو:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام ١١٧).

﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (القصص ٨٥)

ومن حذف الواو الداخلة مع جملة الحال «ومعها قد» ما رصده النحاة من قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُم ﴾ (النساء ٩٠)
وكذلك:

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص ٢١)

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ (الحج ١١)

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ (المجادلة ٦)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت ٤١)

ومن حذف «قد» الداخلة على الماضى فى جملة الحال مع بقاء الواو قوله تعالى:
﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ (البقرة ١٦٦) أى وقدر أو العذاب.

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران ١٦٨) أى وقد قعدوا ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (يوسف ٧١) أى وقد أقبلوا

وحذف حرف العطف كثير فى القرآن حين يتلوه فعل ماض من مادة القول نحو:

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (مريم ٢٣)

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ (العنكبوت ٣١ ـ ٣٢)

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ (يوسف ٤، ٥)

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (يوسف ١٧)

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ (ص ٢٢)

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة ٩٢)

وعلى الرغم من أن فاء العطف فى الشاهد الأخير تصلح أن تلحق «تولّوا» كما تصلح أن تدخل على «قلت» أجدنى أكثر ميلا إلى تقديرها قبل «قلت» حسبما جرى عليه التقدير فى الشواهد التى سبقت ويكون المعنى.

«إذا ما أتوك فقلت تولوا».

وقد رأينا كثرة الحذف قبل فعل القول بالذات. أما قبل غيره فسنراه عند الكلام فى الفصل البلاغى.

وفيما يلى صور أخرى من حذف الحرف:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الأعراف ١٣٨) أى كما أن لهم آلهة.

* ﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُم ﴾ (الأنبياء ١٣) أى وإلى مساكنكم

وذلك كان شأن حذف الحرف سواء أكان من حروف المبانى كما سبق فى الكلام عن ياء المنقوص أو من حروف المعانى كالذى تلا ذلك حتى هذه اللحظة. ولكن الضمير أيضا قد يحذف سواء أكان متصلا أم منفصلا فمن قبيل حذف الضمير حذف ياء المتكلم سواء أكانت فى مواقع المفعول به أم كانت فى موقع المضاف إليه كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ (هود ٦٣ وكذلك ٨٨)

* ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ (يوسف ١٠١)

* ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (الرعد ٣٢)

* ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ (الرعد ٣٦)

* ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (ابراهيم ٤٠)

* ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨)

* ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ ﴾ (الحجر ٦٩)

* ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (النحل ٥١)

* ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف ٦٦)

* ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ (طه ٩٢، ٩٣)

ومن قبيل حذف الضمير أيضا حذف العائد الذى به يتم الربط وذلك عند وضوح

المعنى وأمن اللبس وذلك كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ (البقرة ٤٨) أى لا تجزى فيه

* ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف ٣٣) أى تعلمونه

* ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص ٦) أى يحذرونه

* ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ (البقرة ٢٣٧) أى فنصف ما فرضتموه

* ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران ١٥٢) أى تحبونه

وقد يكون المحذوف كلمة مفردة أيا كان موقعها من الأعراب فيستدل على حذفها إما بأصل التركيب كحين يحذف المبتدأ أو الخبر وإما بوجود الحرف دون مدخوله فيقال إن المدخول محذوف وإما بقرينة السياق ومعناه العالم كما يبدو فى الشواهد الآتية:

* ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (هود ١١١) أى لما يوفوا أعمالهم

* ﴿ كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (مريم ١ ـ ٣) أى هذا ذكر...

* ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ ١٥) أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم رب غفور.

* ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ (محمد ٢١) أى أجدر بهم

* ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة١٧٨) فحقيق به اتباع

* ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة ١٨٤) أى فأفطر فكفارته عدة..

* ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ (البقرة ٢٨٣) أى فضمانتكم رهان

* ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ (البقرة ٢٨٠) أى فأجله نظرة. . .

ولقد درج النحاة على تقدير ما أطلقوا عليه «واجب الحذف» قبل كل مصدر منصوب لم يسبق ذكر فعله ولكن هذه المصادر ينصب بعضها على معنى الإنشاء فلو قدرنا لها فعلا ناصبا لتحول معناها إلى الخبر.

انظر مثلا إلى المصادر المنصوبة التالية.

* ـ ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم ٣٤) فقوله «قولَ الحَق» فى موقع الاعتراض والمعنى «ذلك عيس بن مريم الذى فيه يمترون» وليس معنى الاعتراض «أقول الحق» لأن ذلك يجعله خبرا لا إنشاء ومعناه فى الإنشاء قريب من معنى القسم أو التأكيد بلفظ «حقا».

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ (لقمان ٨، ٩) إنشاء وعد ملزم

* ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ (الأحقاف ١٦) إنشاء وعد أيضا

* ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (النساء ٢٤) إنشاء فرض الإيتاء

* ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (النساء ٣٦) إنشاء أمر بالإحسان

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (التوبة ١١١) إنشاء تعهد بدليل قوله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ (يونس ٢٣) إنشاء الوعيد أى تمتعوا بواسطة استعمال المصدر بمعنى الأمر أى عيشوا حياتكم القصيرة فى الدنيا ثم إلينا تعودون فى الآخرة مثل ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت ٦٦).

* ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ (محمد ٤) إنشاء الأمر بالضرب

ولكن هناك منصوبات تدعو إلى تقدير واجد الحذف كما قال النحاة لأن معناها على غير المعانى السابقة فلا هى وعد ولاعهد ولا وعيد ولا إغراء ولا تحذير ولا معنى آخر من معانى الإنشاء ومن ذلك قوله تعالى:

* ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا ﴾ (الإسراء ٧٧) أى سننّا

* ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الإحزاب٣٨) أى سَنَنّا

وقد يكون اللفظ المفرد المحذوف صفة أو موصوفا أو مضافا أو مضافا إليه أو مفعولا به أو غير ذلك. مثال حذف الصفة قوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف ٧٩) أى سفينة غير معيبة بدليل «فأردت أن أعيبها» وقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء ٧) أى المسجد الاقصى وقوله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا ﴾ (الفرقان ٤٤) أى الانعام الضالة بدليل «بل هم أضل»

ومن حذف الموصوف قوله تعالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (آل عمران ٧)

أى وآيات أخرى متشابهات وكذلك ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (آل عمران ١٣) أى وفئة أخرى وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (النساء ٣) أى فامرأة واحدة وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء ٨٦) أى بتحية أحسن منها وكذلك ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف١٨٩) أى غلاما صالحا. وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ (التوبة١٠١) أى أعراب منافقون.

أما حذف المضاف (وهو يعرف فى البلاغة بمجاز الحذف) فأشهر شواهده ﴿ وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (يوسف ٨٢٢) أى أهل القرية وأصحاب العير والقرينة على الحذف عقلية لعدم صحة سؤال البيوت والإبل. ومثل ذلك أيضا ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ (الرعد ١٧) أى يضرب مثل الحق ومثل الباطل.

وقوله ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ (الحج ١١) أى خيرْ الدنيا وخيرْ الآخرة.

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر ٩) أى يحذر عذاب الآخرة وحذف المضاف إيه مشهور فى الاستعمال مع التعويض عنه بتنوين العوض إذ يلحق بلفظ «كل» و«إذْ» حين تضاف «إذْ» إلى الحين أو ما فى معناه ويستعاض عنه بالبناء على الضم للفظى قبل وبعد حين يقطعان عن الأضافة وربما كانت «إذاً» أحيانا هى «إذا» الظرفية لحقها تنوين العوض لحذف جملة الإضافة وفيما يلى شواهد على حذف المضاف إليه:

* ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (النساء ٧٨) أى كل ذلك
* ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة ١٤٨) أى لكل واحد
* ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (البقرة ٢٨٥) أى كل واحد منهم

* ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ (النساء ٤٢) أى يوم إذَ نأتى من كل أمة بشهيد

* ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (الأنفال ١٦) أى يوم إذ تلقونهم زحفا

* ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (إبراهيم ٤٩) أى يوم إذ تبدل الأرض غير الأرض

* ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ (البقرة ٢٥) أى من قبل ذلك

* ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (آل عمران ٤) أى من قبل الكتاب الذى نزله عليك

* ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ (إبراهيم ٤٤) أى من قبل يوم العذاب هذا

* ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ (يوسف٧٩) أى إنا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون

والقول بحذف المفعول به إنما يكون مع اختصاص الفعل بمفعول معين بحيث إذا ذكر الفعل دون مفعوله عرف المفعول ويكون هذا الاختصاص بسبب من الدلالة المعجمية للفعل أو من دلالة الجملة فى عمومها. فمن الحذف الذى يدل عليه المعنى المفرد للفعل قوله تعالى:

* ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (البقرة ٢٨٥) أى سمعنا قولك وأطعنا أمرك

* ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (الحج ٥٢) أى إلا إذا تمنى شيئا ألقى الشيطان الوسوسة فى أمنيته أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته.

* ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ (القصص ٢٣، ٢٤) فالسقيا والإصدار لا تكون إلا للأنعام هذا ما تدل عليه الأفعال يَسْقُونَ ـ تذودان ـ نسقى ـ يصدر

* ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور ٢٩) أى فذكر قومك

* ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الحشر ٧) أى ما أفاء الله من غنيمة.

* ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ (التوبة ٧٥ ـ ٧٦)

أما المفعول الذى يدل عليه سياق الكلام فمن شواهده ما يلى:

* ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٧٣ ـ ١٧٥) أى إنماذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه فلا تخافوهم.

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الأعراف ١٥٢)، أى اتخذو العجل إلها.

* ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ (الأعراف ١١٥) أى إما أن تلقى عصاك وإما أن نكون نحن الملقين حبالنا وعصينا.

* ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال ١٧) أى وما رميت المشركين إذ رميتهم ولكن الله رماهم.

* ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة ١٩) أى أجعلتم من يتولى سقاية الحاج.

* ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (يونس ٧٧) أى أتقولون للحق لما جاءكم «هذا سحر» أسحر هذا؟

* ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ (الرعد١٤) أى والذين يدعونهم

* ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (الإسراء ٥٧) أى الدين يدعونهم وهم الشركاء المزعومون.

* ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ (النور ٤٣) أى وينزل من السماء بردا من جبال فيها من برد.

* ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (سبأ٤) أى ليجزى الذين امنوا وعملوا الصالحات مغفرة ورزقا كريما.

* ﴿ أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (العاديات ٩ ـ ١١) أى أفلا يعلم أن ربهم خبير إذا بعثر ما فى القبور...

* ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ (النساء ٩) أى خافوا عليهم جور الأوصياء.

فدليل الحذف فى كل ذلك ليس فى المعنى المفرد للفظ الفعل وإنما يؤخذ من سياق الكلام فالمعروف أن الشيطان فى الشاهد الأول كان يخوف المؤمنين من أوليائه وأن المقابلة فى الشاهد الثانى بين سب الهتهم وسبهم لله تعالى وأن الفعل «اتخذ» فى الشاهد الثالث يتطلب مفعولا ثانيا وأوضح النص أنهم اتخذوه إلها وهكذا فى بقية الشواهد.

وقد يكون المحذوف عنصرا غير نحوى ولكنه تقتضيه استقامة النص وقد يكون كلمة واحدة كفعل القول مثلا أو كلاما أطول من ذلك لربط سياق النص فيكون من الوضوح بدرجة تجعل ذكره إطنابا لا مبرر له. من ذلك مثلا قوله تعالى:

* ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأنعام ٣٥) أى إن استطعت فافعل

* ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾ (الأنعام ٧١) أى قائلين له أئتنا

* ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ (الأنعام ٩٣) أى قائلين لهم أخرجوا

* ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ﴾ (الأنعام١٢٨) أى يقول يا معشر الجن

* ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (الأعراف ٨٨) أى كارهين أن نعود فى ملكتم.

* ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود٧٤) أى جعل يجادلنا.

* ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود ٨٨) أى إن كنت على بينة من ربى أأكفر به.

* ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ (الرعد ٣٣) أى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت يُنْسَبُ إليه شركاء.

* ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (إبراهيم ٤٨) أى والسموات غير السموات.

* ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن

﴿ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الإسراء ٥٠ ـ ٥١) أى كونوا كذلك فلابد من إعادتكم وبعثكم.

* ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم ٢٩) أى أشارت إليه أن كلموه أو أسألوه.

* ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ (طه ١٠) أى انست نارا وسأذهب إليها لعلى أتيكم منها بقبس.

* ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ (طه٩٢ ـ ٩٣) أى قال وقد أخذ بلحية أخيه ورأسه يجره إليه ياهرون مامنعك.....

* ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان ٢٠) أى لنعلم أتبصرون أم لا.

* ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ النمل ٢٠ ـ ٢٢) أى وجاء الهدهد فعلم بما قاله سليمان فخاف العقوبة فمكث غير بعيد.

* ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل ٢٨ ـ ٢٨) أى فذهب الهدهد بالكتاب فألقاه إليهم فلما وقع فى يدها قالت يأيها الملأ.....

* ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (لقمان ٢٧) أى وسخر ذلك لكتابة كلمات الله ما نفذت كلمات الله.

* ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (السجدة ١ ـ ٣) أى أيصدقون ذلك أم يقولون افتراه.

* ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو ﴾ (الزمر ٨ ـ ٩) أى أهذا خير أمن هو قانت.

* ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (ق ٣) أى أئذامتنا نبعث مرة أخرى

ومن ظواهر التضام إيضا الزيادة.، والقول بالزيادة ينسب إلى النحو ولاينسب للقران.. ذلك أن الزائد إنما هو زائد على أصل النمط أى على أصل وضع الجملة، فَلِلْجُمْلَة أركانها وفضلاتها من المنصوبات، والمجرورات، فإذا ورد فيها غير ذلك فهو زائد على مطالب الصحة والإفادة وما دامت زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فإن فى زيادة المبنى تأكيدا للمعنى وهذا ما اعترف به البلاغيون وطبقه الأدباء من كل الطوائف وما دمنا نعترف بأن النص القرآنى يشتمل على تأكيد للمعنى، فإن الزيادة إحدى وسائل التوكيد لامشاحة فى ذلك. وهكذا يجب أن ندخل إلى القضية وألا ننسب القائلين بالزيادة إلى التزيد على النص القرآنى لأن الزيادة نحوية لا قرآنية، إذ ليس المقصود أن القرآن نزل بدون هذه الزوائد، ثم زيدت هذه عليه (حاشا لله)، كما أن القول بالحذف منذ قليل لا يعنى أننا ذهبنا إلى أن بعض الفاظ القرآن أهدر وبقى البعض الآخر والعياذ بالله. فإذا علمنا أن كل زيادة إنما جيء بها لتأكيد المعنى أصبح من المستحسن أن نشير إلى أن الزيادة إنما تكون عادة فى الحروف وبعض الضمائر. وفيما يلى طائفة من الشواهد على ذلك فمن زيادة حرف الجر قوله تعالى:

* ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (البقر ٢٦٧).

* ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (هود ٢٩).

* ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء ١١٤).

* ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ (الشعراء ١٤٦) أى أتتركون ههنا.

* ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت ٤٦).

ومن زيادة «لا» قوله تعالى:

* ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ١٠٩) أى إذا جاءت يؤمنون.

* ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف ١٢) أى مامنعك أن تسجد.

* ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ (طه ٩٢) أى مامنعك أن تتبعنى.

* ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ (فاطر ١٩ ـ ٢٢) أى وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور وما يستوى الأحياء والأموات.

* ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ﴾ (فصلت ٣٤) أى الحسنة والسيئة.

* ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الحديد ٢٩) أى ليعلم.

* ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (المعارج ٤٠) أى فأقسم.

* ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (البلد ١) أى أقسم.

ومن زيادة حرف العطف قوله تعالى:

* ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (آل عمران ١٤٠) أى نداولها ليعلم.

* ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٥٤) أى لبرزو اليبتلى.

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأنعام ٥٥) أى نفصل لتستبين ويكثر فى القرآن بدء الجملة بلفظ الإشارة، ثم زيادة الواو قبل التعليل، كما حدث فى الآية السابقة، ومن ذلك (الأنعام ٧٥) ـ (الأنعام ٩٢) ـ (الأنعام ١٠٥) ـ (الأعراف ١٧٤) ـ (يوسف ٢١) وغير ذلك.

* ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ (الأنعام ١١٢ ـ ١١٣) أى ذرهم وما يفترون لتصغى.

* ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (آل عمران١٥٢) أى حتى إذا فشلتم تنازعتم ثم صرفكم عنهم.

* ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (التوبة ١١٨) أى حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ظنوا.

* ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (يوسف ١٥) أى فلماذا هبوا وأجمعوا أوحينا.

* ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (طه ٣٩) أى ألقيت لتصنع.

* ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ (الصافات ١٠٣، ١٠٤) أى فلما أسلما وتلّه ناديناه.

* ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (الزمر ٧٣) أى حتى إذا جاء وها فتحت.

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (الحج ٢٥) أى: إن الذين كفروا يصدون.

وقد تزاد «ما» بعد «إنّ» فيتحول بها التوكيد الذى فى إنّ إلى حصر والحصر أقوى، كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ (المائدة ٣٣) أو تزاد بعد حرف الجر كما سبق فى قوله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ (الشعراء ١٤٦) وقوله: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ (نوح ٢٥) وقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران ١٥٩). أما زيادة الضمير فأجدنى شديد الميل إلى رؤية ما أطلق عليه النحاة ضمير الشأن ضميرا زائدا عن مطلب صحة الكلام وإفادته بقصد التوكيد لأن المضمون الذى يراد التعبير عنه، إنما تعبر عنه الجملة التى بعد ضمير الشأن، وبخاصة عندما رأوا هذا الضمير مبتدأ، أما إذا دخلت عليها «إنّ» أو إحدى أخواتها فزيادة الضمير بعدها كزيادة «ما» فى «إنما». وهكذا أرى الفرق بين قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص ١) وقولنا «إنما لا يفلح المجرمون»، فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس١٧)، وكذلك ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ (فصلت ٢٨) لأن ضمير الإشارة عندى يصلح للشأن، وقد يزاد الضمير للتأكيد فى مواطن أخرى كما فى قوله تعالى:

١ ـ * ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (النمل٣) أى وهم بالأخرة يوقنون

٢ـ * ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ (النمل٥) أى وهم فى الآخرة الأخسرون أو وفى الآخرة هم الأخسرون.

ومن ظواهر التضام ظاهرة الفصل. والفصل نوعان فصل بالمعنى النحوى وفصل

بالمعنى البلاغى، وكان من الأفضل أن يستعمل أحد الفريقين لفظ «الفصل» ويستعمل الآخر لفظا آخر يحول دون الخلط فى الفهم، ولكن الخلط الناتج عن هذا المصطلح المستعمل فى فرعين من فروع دراسة اللغة أيسر مما يأتى من مصطلح آخر لمصطلح «المفرد» الذى يتعدد معناه فى حدود مادة واحدة هى النحو. فالمفرد.

أ ـ غير المثنى والجمع

ب ـ غير الجملة وشبه الجملة

جـ ـ غير المضاف والشبيه بالمضاف

نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع الفصل بقسميه فنبدأ الكلام فى الفصل النحوى. حين وضع النحاة للجملة النحوية نمطا جعلوا للمفردات فى داخل الجملة درجات متفاوتة من الارتباط وجعلوا أقوى الروابط بين الكلمتين رابطة التلازم، ثم جلعوا لمفردات الجملة ميزة انتمائها إلى الجملة، وجعلوا كل مالا ينتمى إلى الجملة أجنبيا عنها وكرهوا الفصل بين المتلازمين بأجنبى، وإن لم يكرهوا الفصل بينهما بالجملة المعترضة لمالها من استقلال فى الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى الكلام. فالقضية كما ترى هى قضية الحفاظ على قرينة التضام أن يحيط بالكلام لبس بسبب الترخص فى تطبيقها.

ومما يوصف بلفظ «المتلازمين» الأداة ومدخولها والفعل والفاعل والمضاف والمضاف إليه والمنعوت ونعته، أو قل إن شئت المتبوع وتابعه بصورة عامة وما أشبه ذلك. دعنا الآن نأت ببعض الشواهد القرانية على ظاهرة الفصل.

١ ـ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾ (النساء ٤٣) فلو بحثنا عن التوازن بين غايتى النهى لبدت الصورة على النحو التالى.

أ ـ وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون

ب ـ ولا جنبا حتى تغتسلوا

ثم جاء تركيب الاستثناء ففصل بين المعطوف وغايته.

٢ ـ * ﴿ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (الأعراف ١٣٧) فصل بين الموصوف وصفته بما عطف عليه إذ المقصود والله أعلم: مشارق الأرض التى باركنا فيها ومغاربها.

٣ ـ * ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (هود ٦٠) فصل بالمفعول الثانى بين المتعاطفين ولايقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثانى، لأن الفعل من أخوات أعطى ومفعولاها ليسا متلازمين، لأنهما ليس بينهما علاقة إسناد ملحوظة، كالتى بين مفعولى ظن.

٤ ـ * ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد ٤٣) أى كفى بالله ومن عنده علم الكتاب للشهادة بينى وبينكم ففصل بالتمييز وما تعلق به من ظرفية بين المتعاطفين.

٥ ـ * ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ (سبأ ٣) أى قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم ففصل بالجواب بين الموصوف وصفته لضرورة تأخير الصفة بسبب ما يتعلق بها مما يأتى بعدها مباشرة، وهو قوله تعالى:

﴿ لاَيَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مما يعد تفسيرا لقوله «عالم الغيب».

٦ ـ * ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة ١) فصل بالجارو والمجرور بين الفعل والفاعل لإفادة تقييد التسبح بالجار والمجرور، ثم بالفاعل بين المجرور وصفاءته لئلا تطول الشقة بين ركنى الجملة بما ليس من أركانها.

٧ ـ * ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ (الأنعام ١٥٨) فصل بالمفعول بين الفعل وفاعله لئلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، ثم فصل بين المفعول وصفته بالفاعل لئلا تطول الشقة بين ركنى الجملة بواسطة ماليس من أركانها أى بالفضلة.

٨ ـ * ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (الكهف ٩٦) فصل بين فعل الأمر «آتوا» ومفعوله «قطراً» بجواب الأمر. وإنما جعلنا ذلك فصلا مع أنّ الفاصل جملة تامة التكوين، لأنها على رغم تمام تكوينها لم تستوف شروط الجملة المعترضة، وبخاصة شرط كونها أجنبية عن السياق ولامحل لها من الإعراب ومن الواضح أن الفعل «أفرغ» مجزوم فى جواب الأمر، ومن ثم يكون جوابا لا اعتراضا. ويجوز فى الجملة أيضا أن تكون من قبيل التنازع، ولكن التقدير الأول أوضح ولايحتاج إلى القول بالحذف.

٩ ـ * ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ (التوبة ١٠١)، والمعنى أن ثمة منافقين مردوا على النفاق ممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة. فصل بالمعطوف على الخبر المقدم أى بقوله «ومن أهل المدينة» بين المبتدأ المؤخر «منافقون» وبين صفته «مردوا على النفاق»، لأنه لو اتصل الخبر المقدم بالمعطوف فقيل: وممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، فلربما ظن السامع أن أهل المدينة داخلون فى مفهوم «حولكم» وأن مثلهم فى هذه الظرفية مثل الأعراب. وواضح أن أهل المدينة بينهم وليسوا حولهم، لأنهم يساكنونهم ويخالطونهم.

١٠ ـ * ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (إبراهيم ١٠) فصل بين الموصوف وهو لفظ الجلالة وبين صفته «فاطر» بالمتبدأ المؤخر، لأن الفصل بالصفة المركبة من الإضافة والعطف بين الخبر المقدَّم والمبتدأ المؤخر ليصير الكلام: أفى الله فاطر السموات والأرض شك هذا الفصل يضعف مابين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر من رابطة ويجعل التركيب قلقا.

١١ ـ * ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء ٣٦) فصل بين المتعاطفين وهما الوالدان، وذو القربى بالمصدر المنصوب على معنى الأمر، لأن المصدر لو تقدم فقيل «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَاتُشْرِكُوا به شَيْئاً وإحسانا بالوالدين...» لظنه السامع معطوفا على لفظ «شيئا» ولا

تشركوا به إحسانا بالوالدين، أى لاينبغى لبر الوالدين أن يكون على حساب عبادة الله وحده. ولو تأخر المصدر المنصوب «إحسانا» عن قوله: ﴿ وما ملكت إيمانكم ﴾ لضاع ما يحمله من معنى الأمر وضعفت الرابطة بينه وبين بقية الكلام.

هذا الذى تقدم هو الفصل النحوى الذى قوامه الفصل بين المتلازمين بفاصل هو دون الجملة، إلا أن تكون الجملة ذات محل إعرابى كما فى رقم ٨ السابق، فإنها تعد كالمفرد، لأنها حلت محله واتخذت لنفسها إعرابه، فالفصل بها كالفصل بالمفرد. أما إذا كانت الجملة أجنبية على التركيب ولا محل لها من الإعراب، وكانت مستقلة بإفادتها، فإن الفصل بها يسمى الاعتراض، كما سنرى فيما بعد.

والفصل البلاغى وإن كانت وسيلته نحوية يختلف عن الفصل النحوى، ولعل إيراده فى هذا المكان وتقديم القول فيه عن موضعه فى الدراسة الأسلوبية، إنما هو هذه الوسيلة النحوية وهى حذف حرف العطف. ولقد كان يمكن أن ندرسه فى معرض دراسة حذف الحرف، التى تقدم القول فيها لو لا أن للفصل البلاغى من خصوصية المقام ما يجعله شيئا آخر غير مجرد الحذف النحوى. ذلك بأن الفصل البلاغى ينم دائما عن موقف انفعال قد يكون خوفا أو غضبا أو استعجالا أو استغرابا أو تعجبا، وغير ذلك من هذا النوع من المواقف الجديدة. وسنرى ذلك واضحا وضوحا تاما فيما نورده من الشواهد التالية إن شاء الله: قال تعالى:

* ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ (البقرة ٦٠) الموقف موقف تعجب للمعجزة. وتفسير الأنفجار بإرادة الشرب.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة ٦٤) الموقف موقف غضب لقولهم الشنيع وتنزيه لله سبحانه وتعالى. وإضراب عن دعواهم إلى عكسها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (المائدة ١٠٥) الموقف موقف تشجيع وحث.

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ١١٦ ـ ١١٧) الموقف موقف التبرؤ مما نسب إليه.

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ (المائدة ١١٩ ـ ١٢٠) الموقف موقف فصل القضاء.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام ٥٦ ـ ٥٨) الموقف موقف نزاع وتحدّ.

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف ٨٩) الموقف موقف التبرؤ والرفض.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف ٩٢) الموقف تشديد النكير عليهم. (لاحظ أيضًا التكرار بإعادة اللفظ).

* ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾

(يونس ١٥، ١٦) الموقف موقف رفض الانصياع للإغواء (لاحظ استعمال «ولا أدراكم» بدلاً من «وما أدراكم» لانتقاء التباس النفى بالتعجب).

* ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس ٦٨ ـ ٧٠) الموقف موقف الاستبشاع لما قالوا.

* ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف ٣٠) هذا موقف الغيبة ونشر الشائعة وشهوة استباحة العرض مع الهمس والتخفى.

* ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٣٧ ـ ٤٠) هذا موقف تبليغ الرسالة وهو الموقف الوحيد الذى يبدو فيه يوسف نبيًا يبلغ رسالة. فيما عدا إشارة إلى ذلك فى سورة غافر ٣٤.

* ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص ٦٣) وهذا موقف فزع وتمحل أعذار.

* ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ ٤٠ـ ٤١) وهذا موقف تبرؤ من المشركين يوم الحشر.

* ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (فصلت ٥٢ ـ ٥٤) وهذا موقف تسفيه وتهديد.

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ (الحشر ١٤ ـ ١٦) هذا موقف ذم غاضب.

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر ٢٢ ـ ٢٤) وهذا موقف تسبيح وتنزيه قصد به الرد على الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون ٤) وهذا موقف ذم غاضب ودعاء وتهديد.

نصل الآن إلى قضية الاعتراض. والمقصود اعتراض مجرى النمط التركيبى بما يحول دون اتصال عناصر الجملة بعضها ببعض اتصالا تتحقق به مطالب التضام

النحوى فيما بينها والجملة المعترضة فى كل أحوالها أجنبية عن مجرى السياق النحوى فلا صلة لها بغيرها ولا محل لها من الاعراب وإنما هى تعبير عن خاطر طارىء من دعاء أو قسم أو قيد بشرط أو نفى أو وعد أو أمر أو نهى أو تنبيه إلى ما يريد المتكلم أن يلفت إليه انتباه السامع. وفيما يلى طائفة من الشواهد تشتمل على أنواع من الاعتراض الذى يوصل به إلى هذه الأغراض قال تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة ١٠)

فى الآية اعتراض للدعاء على مرضى القلوب المذكورين.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة ٢٤)

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران ١٢٧ ـ ١٢٨)

وفى هذه الآية اعتراض بالجملة المنفية لتنبيه النبى عليه السلام إلى أن النصر والهزيمة كليهما بأمر الله الذى له الاختيار وحده فيما يريد.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الأنعام ٨٤)

جاء الاعتراض للدلالة على أن الله هدى أصولاً لإبراهيم كما هدى فروعه ليكون إبراهيم أو غل فى الهداية أو لما بين إبراهيم ونوح من شبه فى التعرض للهلاك ثم النجاة أثناء الدعوة.

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام ١٠٦)

الاعتراض لاعلان التوحيد والتنزيه.

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (الأعراف ٨٨)

الاعتراض بالنداء ليكون التهديد بالاخراج أكثر توجها إلى شعيب وإن شاركه أتباعه فى تلقى التهديد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس ٥٠)

جاء الاعتراض بالشرط بين عناصر مفسر الجواب إذ لو كان «ماذا يستعجل» هو جواب الشرط لاقترن الجواب بالغاء لكون الجواب يبدأ بـ «ما» والتقدير.

قل أرأيتم الوعد ماذا يستعجل منه المجرمون إن أتاكم عذابه بيانا أو نهاراً

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ (هود ٨١) أى أسر بأهلك إلا امراتك والاعتراض للتحذير.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ (يوسف ٧٣) أى تالله ما جئنا لنفسد والاعتراض لإثبات علم المخاطبين بمضمون جواب القسم.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل ٤٥ ـ ٤٧).

جاء الاعتراض للتنبيه إلى قدرته تعالى عليهم ولرعاية الفاصلة.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم ٣٠، ٣٢) أى جعلنى مباركا أينما كنت وبرا بوالدتى وجاء الاعتراض بجملة تشتمل على التكاليف وقد سبقتها ولحقت بها نعم الله عليه.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم ٣٤) أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون وجاء الاعتراض لتأكيد أنه كذلك.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ (النور ٣٥) أى فيها مصباح يوقد من شجرة مباركة والاعتراض لبيان أحوال إضافية للمصباح تكشف عن قوة إضاءته.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس ٣١) أى ألم يروا أنهم إليهم لايرجعون. وجاء الاعتراض لبيان كثرة الأجيال الهالكة.

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص ٣٩) أى هذا عطاؤنا بغير حساب وجاء الإعتراض ليمنحه حرية التصرف فيما أعطاه الله.

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (ص ٥٧) أى هذا حميم وغساق فليذ وقوه، واعترض بجملة الأمر لبيان استحاقهم أن يذوقوه.

﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح ٢٥) أىَ ولولا أن تطأُوا بغير علم رجالا مؤمنين ونسَاء مؤمنات لم تعلموهم فلو تزيلوا لأصابتكم منهم معرة لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما واعترض بقوله «ليدخل الله فى رحمته من يشاء» ليدل على أن عدم دخول المسلمين مكة فى هذه الغزوة كان رحمة بهؤلاء المؤمنين المستخفين. وإنما لم نعد قوله: «فتصيبكم منهم معرة» اعتراضا بين «أن تظأوهم» و«بغير علم» لأنه معطوف بالفاء على «أن تطأوهم».

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور ٢٩) اعترض بجملة القسم ليؤكد نفى الصفتين عنه.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة ٧٦) اعتراض بجملة الشرطة المحذوفة الجواب لتَعْظيم هذا القسم وتفخيمه ثم لبيان جهلهم بهذه الحقيقة.

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم ٢) اعترض بجملة القسم لتأكيد نفى ما اتهموه به باطلا من الجنون.

ومن ظواهر التضام إدخال اللفظ على غير مدخوله. وقد عرفت هذه الظاهرة فى النحو العربى بأسماء متعددة منها حذف المدخول الأصلى ومنها نيابة الحرف عن الحرف ومنها التضمين فمن حذف المدخول الأصلى وإدخال اللفظ على غير هذا المحذوف قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (هود ١١١) إذ المعلوم أن «لمَا حرف جزم يدخل على المضارع ونعلم أيضا أن من قواعد النحاة قولهم «لايدخل الحرف على الحرف» ولكن «لمَا» بدلا من أن تدخل على الفعل المضارع دخلت على اللام الموطئة للقسم وقد أول النحاة ذلك على حذف مضارع مجزوم بـ «لما» والتقدير:

وإن كلا لما يُوَفَّوْا أعمالهم ثم الاستئناف بجملة «ليوفينهم»ولذلك تأويل آخر نسوقه فيما يلى: إن اللام تكررت للتأكيد وعزز معناها بزيادة «ما» بين اللامين كما حدث فى قوله الشاعر:

ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى

تفاديا لتوالى اللامين فى الآية وتوالى حرفى النداء فى البيت. وليس ذلك هو المكان الوحيد لزيادة «ما» بعد اللام وانما هو موجود فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الزخرف ٣٥) ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (يس ٣٢) ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (الطارق ٣٢) والفارق الوحيد هو عدم تكرار اللام فى هذه الآيات الأخيرة. ومن ذلك أيضا:

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ ﴾

(الإسراء ١٠٠) إذ دخلت «لو» على الضمير وحقها أن تدخل على الفعل الماضى وربما أول النحاة ذلك بحَذْف «كان» وانفصال الضمير بعد الحذف والأصل «لو كنتم تملكون» نقول ذلك استرشاداً بصَنيعهمْ فى قول الشاعر: أما أنت ذا نقر» إذا أولوا ذلك على نزع الخافض وحذف كَانَ ونيابة ما عنها.. وانفصال الضمير وقدروا

العبارة: «لأن كنت ذانفر» والمعروف أن نزع الخافض يطَرد فى «أنّ» و«أنْ» ولم يقولوا بزيادة ما لأن الحذف والزيادة لو اجتمعا في موقع واحد من الجملة لكان عبثا. وفى رأيى أن الرواية تحتمل كسر همزة «إما» بتقدير «إنْ» الشرطية وما النائبة عن«كان» أو أن تقدير فتح اللام فى «لأن كنت» على معنى القسم الذى جوابه مقدر أى لنحن أكثر عددا أولى من كسرها وعندئذ تكون الفاء سببيه تشرح سبب كثرة عددهم وإما نيابة الحرف عن الحرف فمصدرها المبدأ الذى يسمح للمبنى الوظيفى أن تتعدد معانيه وإنك لورجعت إلى معانى حروف الجر مثلا فى أى من متون النحو لوجدت المعنى الواحد ربما عبر عنه عدد من الحروف وحسبنا أن نقتبس شطرة واحدة من ألفية أبن مالك لنستدل بها على ما نقول وهى قوله:

«على للاستعلا ومعنى فى وعن»

فلم يجعل معنى «على» الاستعلاء فقط وحين أراد أن يعد معانيها الأخرى لم يقل «والظرفية والمجاوزة» وإنما قال «ومعنى فى وعن» مما يدل صراحة على نيابة «على» عن «فى» و«عن». ولو قرأنا فوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** (٢٢) **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** (٢٣) **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ (الحج ٢٢ ـ ٢٤) لصادفنا «من» الجارة تتكرر عدة مرات بمعان مختلفة على النحول التالى:

١ ـ منها = ابتداد الغاية

٢ ـ من غم = السببية (أى معنى اللام)

٢ ـ من تحتها = زائدة للتأكيد

٤ ـ من أساور = معنى الباء

٥ ـ من ذهب = البيان وهو (معنى التمييز) أى أساور ذهب

٦ ـ من القول = البعضية

فهذه ست معان عبرت عنها «من» نابت فى أحدها عن اللام وفى غيره عن الباء، وقد تأتى «من» بمعنى «دون» كما فى قوله تعالى:

* ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ (الإسراء ١١١) أى دون الذل.

* ـ ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴾ (المؤمنون ٦٥) أى دوننا.

* ـ ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم ٢٨) أى دون الحق.

وقد تأتى «من» للمجاوزة «أى بمعنى عن) كقوله تعالى: ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش ٤) وتنوب اللام عن «على» نحو ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ (يونس ١٢) وعن «عن» ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (يس ٤٧) وتأتى بمعنى السببية نحو ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى ﴾ (طه ١٤) والظرفية نحو ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ (الإسراء ٧٨) وتنوب «عن» عن اللام نحو ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ (هود ٥٣) وكذلك تأتى «على» للاستعلاء نحو ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ (الحج ٢٨) وتأتى بمعنى المعية نحو ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ (الرعد ٦) ونحو ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ (الحجر ٥٤) وبمعنى «أمام» نحو ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (طه ٣٩) وتنوب «فى» عن «على» نحو ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (طه ٧١) وقد تأتى «بل» للتأكيد نحو ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص ٢) وأيضا ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (ص ٨) وقد تأتى «اذ» للسببية نحو ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف ١١) وقوله ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (النور ١٣) وقد تأتى «أو» نائبة عن همزة التسوية و«أم» التى تعطف بعدها كما فى قوله تعالى:

١ ـ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ (الإسراء ٥٠ ـ ٥١) أى سواء أكنتم حجارة أم حديدا أم خلقا فلابد من البعث.

٢ ـ ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ﴾ (الإسراء ١٠٧)

٣ ـ ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ (الإسراء ١١٠)

٤ ـ ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (الطور ١٦)

٥ ـ ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ (الملك ١٣)

ومعنى التسوية هذا يؤديه تكرار «إما» أيضا نحو

﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ (مريم ٥٧) أى سواء أكان المرئى العذاب أم كان الساعة.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان ٣) أى سواء أكان شاكراً أم كان كفورا وليست النيابة خاصة بالحروف فقط فقد ينبوب المصدر عن فعل الأمر وقد تنوب عناصر بعينها عن المفعول المطلق وقد ينوب المفعول عن الفاعل وقد تنوب الفتحة عن الكسرة وقد ينوب العوض عن المعوض وقد ينوب جواب القسم عن جواب الشرط والعكس صحيح وقد تنوب صيغة «فعُل» بضم العين عن «نعم وبئس» وقد ينوب الفاعل عن الخبر إذا كان المبتدأ وصفا وقد تنوب الحال عن الخبر أيضا وقد تنوب صيغة صرفية عن صيغة أخرى كالذى تقدم من نيابة المصدر عن فعل الأمر ونيابة وصف «فاعل» المنون عن المضارع المفيد للحال أو الاستقبال وهلم جرا.

ومن صور النيابة التضمين وإن كان لفظ التضمين يعنى معانى أخرى فى فروع أخرى بلاغية ونقدية فهو فى الشعر تعلق قافية بيت بالبيت الذى يليه، وفى البديع أن يأخذ الشاعر أو الناشر آية أو حديثا أو بيتا أو شطرا من بيت أو عبارة من كلام غيره دون أن يغير لفظا منه أو معنى، والتضمين فى البيان أن تعدى الفعل بغير حرفه أما فى النحو فهو إشراب كلمة معنى كلمة لتقع موقعها وتتبوأ بيئتها فى الكل

وتؤدى وظيفتها النحوية، وقد رأينا نموذجا من ذلك فى نيابة الحرف منذ قليل ولكن ظاهرة التضمين النحوى أوسع مدى من إقليم الحروف كما يبدو من الشواهد التالية: قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُم ﴾ (هود ٧٠) ضمن «تصل» معنى «تمتد» لأن الأيدى لم تمتد حتى تصل أو تقصر دون الوصول.

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (النحل ٩٢) ضمن «نقض» معنى «جعل» أو «صيّر» فانتصب به مفعولان أصلهما المبتدأ والخبر، ولا يمكن إبقاء «نقض» على معناه الأصلى وإعراب «أنكاثا» حالا لآن ذلك يقتضى أن الغَزْل كان أنكاثا حال النقض أى نقضت غزلها وهو أنكاث وهذا غير المقصود لكون النقض عند ذلك يصبح تحصيل حاصل لما بين الحال والفعل الناصب لها من ملابسة فى الزمن والوقوع.

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ (النور ١٧) ضمن «يعظلكم معنى «ينهاكم» على أن يعرب ما بعدها وهو المصدر المؤول منصوبا على نزع الخافض أى ينهاكم عن العود لمثله وذلك لأن «وعظ» يتعدى بالباء كأن يقال «وعظه بالحكم» ولو قدرنا الباء فى مكان «عن» لتغير المعنى.

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان ٣٠) ضمن «اتخذ» معنى «جعل» أو «صيّر» لأن هناك فرقا فى المعنى بين الاتخاذ والتحويل وأن المفعول الثانى للاتخاذ ينتسب إلى الفاعل بعلاقة الانتقاء والاصطفاء إذ تقول اتخذت زيدا صديقا أى انتقيته لهذه النسبة والناس لايتخذون الشىء مهجورا وإنما يجعلونه كذلك.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ (النمل ١٩) ضمن «ضاحكا» معنى «عاجبا» أى «متعجبا» لأن المعنى الحرفى لتعدية الضحك بواسطة «من» هو السخرية والمعروف أن سليمان لم يسخر من النملة التى قالت هذا الكلام وإنما تعجب لما للنمل من حسن التدبير والاعتراف لبعض أفراده بالقيادة والإرشاد ووجوب الطاعة.

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (ص ٣٢) ضمن «أحب» معنى «فضل» فعدى الفعل بـ «على» وهو يصل إلى مفعوله بنفسه.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَى ﴾ (فصلت ١٧) ضمن «استحبوا» معنى «فضلوا» وسلط الفعل على المفضل عليه بواسطة «على» كما يحدث مع الفعل «فضلوا» مع العلم أن «استحب» يتعدى بنفسه لا بالحرف ولا يتطلب لمفعوله مفاضلة ويكفى أن يقال إن الدعاء وقت الشدة «مستحب» دون أن نقول إنه مستحب على عدمه.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (فصلت ٢٢) ضمن «تستترون» معنى «تتحاشون» أو «تتجنبون» أو «تتقون» وإنما عبر بالاستتار لأن شهادة الجلود تعنى أنها لم تكن مستورة عند المعصية.

وأما إغناء أحد العنصرين عن الآخر فيبدو فى عدة ظواهر فى النحو العربى ومن ذلك:

١ ـ أغناء الحركة عن الحركة كإغناء الفتحة عن الكسرة فى إعراب مالا ينصرف وعكسه فى جمع المؤنث السالم.

٢ ـ إغناء «يا» النداء عن الفعل «أدعو» بدليل أن ما بعدها إما منصوب أو فى محل نصب.

٣ ـ إغناء فاعل الوصف عن خبره عندما يكون الوصف مبتدأ.

٤ ـ إغناء الحال عن الخبر عندما يكون المبتدأ مصدرا أو تفضيلا.

٥ ـ إغناء «أنّ» وما بعدها عن نصب مفعولى ظن.

٦ ـ إغناء المتقدم عن المتأخر من جوابى الشرط والقسم عند اجتماعهما.

٧ ـ إغناء العوض عن المعوض فى كل صور التعويض.

وأمور أخرى مشهورة فى النحو العربى وكلها مستعمل فى تراكيب القرآن لا يفتقر فى شهرته إلى الاستشهاد على وجوده.

يبقى مما عددناه من مظاهر التضام ما أشرنا إليه باسم الشروط التركيبية التى تتضح بتحققها خصوصية السياق ومعناه التركيبى ومن ذلك:

١ ـ أن «أنْ» إذا سبقها علمْ أو نحوه كانت مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوفاً فإذا وقع المضارع بعدها جاء مرفوعا نحو ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى** ﴾ (المزمل ٢٠)

٢ ـ إذا كانت الجملة المفسرة لضمير الشأن مشتملة على مؤنث ظاهر غير فضلة وفعل لحقت به علامة التأنيث رجح تأنيث الضمير للقصة على تذكيره للشأن وذلك كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ** ﴾ (الحج ٤٦)

٣ ـ إذا أضيفت « أى » وحذف صدر صلتها بنيت على الضم نحو ﴿ **ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا** ﴾ (مريم ٦٩) وقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ (الإسراء ٥٧)

٤ ـ إذا لم يعتمد المبتدأ الوصف على نفى أو استفهام أو مبتدأ أو موصوف ضعف عند بعض النحاة ولكنه لا يمتنع فى الكلام كقوله تعالى: ﴿ **وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأعراف ١٣٩)

٥ ـ إذا لم تكن جملة الخبر عين المبتدأ فى المعنى وجب اشتمالها على رابط يعود على المبتدأ نحو ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ (النساء ٢٧) وقوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ** ﴾ (النساء ٩٩)

٦ ـ قد يقترن الخبر بالفاء إذا كان المبتدأ موصولا نحو ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ (محمد ٨)

٧ ـ شرط نقصان «دام» أن تقترن بـ «ما» المصدرية الظرفية.

٨ ـ أَشْهَرُ ما تزاد كان فى الكلام وهى بلفظ الماضى.

٩ ـ إذا انتقض النفى بإلاامتنعت الباء الزائدة.

١٠ ـ يندر فى خبر فعل كاد وأخواتها أن يكون غير الفعل المضارع.

١١ ـ إذا أهملت «إنْ» المخففة لزمت اللام الخبر لتكون فارقة بين التأكيد والنفى.

١٢ ـ إذا استعملت «ضرب» فى المثل نصبت مفعولين نحو ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً** ﴾ (النحل ١١٢)

١٣ ـ يطرد نزع الخافض قبل أنّ وأنْ.

١٤ ـ لا يجوز حذف عامل المصدر المؤكد.

١٥ ـ يعد الظرف متصرفا إذا صح أن يخبر عنه أو يضاف إليه.

١٦ ـ قد توصف النكر بالموصول إذا كان الموصول مسبوقا بصفة أخرى مفردة نكرة نحو ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه** ﴾ (الهمزة ٢، ٢)

١٧ ـ إذا صدرت جملة جواب القسم بفعل ماض متصرف مثبت فحقها أن تقترن باللام وقد أو باللام وبما نحو ﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ (يوسف ٩١)

١٨ ـ لا يتعلق بفعل ظاهر من حروف القسم إلا الباء.

١٩ ـ المبهم لا يتضح معناه إلا بالإضافة أو الوصف أو التمييز.

٢٠ ـ بعض الظروف ملازمة للإضافة.

وهكذا نجد الشروط التركيبية من هذا النوع تعبيرا صادقا عن طرق التركيب والتضام بين الكلمات وهكذا تعد الشروط المذكورة جزءا لا يتجزأ من قرينة التظام.